رحالة المشرق
ودورهم في التدوين التاريخي

م.د. احمد نشمي جياد العلياوي
Ahmedjiyad1980@gmail.com.
الجامعة العراقية/ كلية الآداب / قسم التاريخ
07714860214

رحالة المشرق ودورهم في التدوين التاريخي

م.د. احمد نشمي جياد العلياوي

الملخص

اعدت رحلات المشرق من اهم المصنفات في التاريخ بصفة عامة والتاريخ الاسلامي بصفة خاصة، وذلك لما احتوته من مادة علمية غزيرة اعطت لنا صورة واضحة ومفصلة عن البلدان وشعوبها ومدنها وبعض جوانبها، وعلى اثر تلك الصورة او المعلومات فقد اعتمدت من قبل الكثير من المصادر الاولية سواء في كتب التاريخ العام او الجغرافية، والمراجع الثانوية وكذلك اعتمدت من قبل التاريخ الاستشراقي الذي اشادوا بتلك الرحلات واقتبسوا العديد من نصوصها وخاصة الذين كتبوا عن الادب الجغرافي العربي امثال كراتشوفسكي وغوستاف لوبون وغيرهم، لذلك كانت تلك الرحلات من الرحلات التي دونت تاريخ الشعوب سواء كانت في الجانب الاجتماعي او العمراني او غيره واصبحت مصدراً مهماً اعتمدت عليها الدراسات العربية والعالمية في معرفة حقائق البلدان في العصور الوسطى.

الكلمات المفتاحية: (الرحلة، رحالة المشرق، التدوين التاريخي)

Abstract

Journeys of the East were prepared as one of the most important works in history in general and Islamic history in particular, because it contained abundant scientific material that gave us a clear and detailed picture of countries, their peoples, cities and some of their aspects. General or geographical books, and secondary references, as well as adopted by the Orientalist history, who praised these trips and quoted many of their texts, especially those who wrote about Arab geographical literature such as Krachovke and Gustave Le Bon and others, so these trips were among the trips that codified the history of peoples, whether in the social aspect or Al-Omrani or others, and it became an important source on which Arab and international studies relied on knowing the realities of countries in the Middle Ages.

key words: (The Journey, Voyager of the Orient, Historical Blogging)

المقدمة

اعدت الرحلات المشرقية جزء مهم من الرحلات العربية والاسلامية في العصور الاسلامية وذلك مما قدمته من معلومات قيمة عن البلدان وشعوبها ومدنها وبعض جوانبها منها الجانب الاقتصادي والجانب الاجتماعي والجانب العمراني لذلك تناول البحث عن اهم رحالة المشرق الذين كان لهم دوراً بارزاً في التدوين التاريخي والتدوين الجغرافي والذي وصف برحلاتهم وصفاً دقيقاً للبلدان التي زاروها من خلال المشاهدة او عن طريق النقل لبعض الثقات من الناس الذين التقوا بهم في تلك البلدان، وعلى اثر ذلك نقل هؤلاء الرحالة صورة واضحة ومفيدة افادوا بها الدراسات التاريخية والجغرافية سواء العربية كانت ام العالمية، وقد تناول البحث عدداً من اهم رحالة المشرق الاسلامي الذين عرفوا في كتب التاريخ الاسلامي وكتب التاريخ العام وكتب الاستشراق الجغرافي ومنهم ابن خرداذبه صاحب كتاب المسالك والممالك وابن رسته صاحب كتاب الاعلاق النفيسة والهمذاني صاحب كتاب البلدان، وناصر خسرو صاحب كتاب سفر نامة، والهروي صاحب كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات، والقزويني صاحب كتاب آثار البلاد وأخبار العباد، وتم ذكرهم حسب سنة الوفاة.

أولاً: اهمية الرحلة

أهتم العرب والمسلمون بوصف البلدان وخاصة البلدان التي دخلت فتوحاتهم، فقد تحدثوا عنها في كتاباتهم التاريخية الاولى، ودعاهم ما في القرآن الكريم من اشارات الى الامم السابقة ان يطلعوا على ما عند اهل الكتب السماوية قبلهم من اخبارها(ضيف، ١٩٨٧، ص١).

وكان انحاء هذا الملك الواسع الذي اسسه المسلمون تتطلب الدراسة والوصف لأغراض عديدة منها تطبيق احكام الشريعة وتسهيلاً لمهمة الولاة، لذلك سافر الرحالة المسلمون للتأليف في علم تقويم البلدان، وطبيعي ان تكون الرحلات والاسفار من اول السبل لطلب العلم في تلك العصور فقد كانت الكتب الدراسة العلمية تقوم مقام ما نصفه اليوم من تتبع مراجع والمؤلفات التي تزدحم بها مراكز الثقافة في ديار السلام وكان رجال العلم ينتقلون في طلبه من اقليم الى آخر(حسن، ٢٠١٢، ص١٠).

لذلك كانت الرحلة عنصراً قوياً في حياة المجتمع الاسلامي في العصور الزاهرة، فقد رحل الناس لزيارة مهبط الوحي، ولقو في سبيل ذلك الكثير من صعوبات السفر التي تحملوها راضين مسرورين، ورحل الناس في طلب العلم للبلدان المختلفة، فقد كان العلم منتشرة مراكزه في انحاء العالم السلامي، ورحل القوم في سبيل الاتجار فقد كانت الاسواق الاسلامية في مشارق الارض

ومغاربها مرتبطة بعضها ببعض كل الارتباط، اضافة الى ذلك رحلة الرسل والمبعثين من قبل السلاطين والحكام، والمغامرين ومحبي المشاهدة والاستطلاع الواجدين في الرحيل لهذه خاصة، وكل هذه الانواع عرفها الرحالة العرب والمسلمين وبتعدد تلك الانواع نشأت لديهم حب المعرفة فيما وراء المجهول(زيادة، ١٩٨٧، ص١٥).

وقد دون الكثير من رحالة العرب والمسلمين اخبار اسفارهم وتنقلهم، فذكروا المدن التي زاروها والمسافات التي اجتازوها والصعوبات التي تغلبوا عليها، ووصفوا البلاد وزرعها وقيدوا مشاهداتهم عن صناعتهم وتجارتهم، واتوا على وصف حياة السكان فعرفوا الطيب من عاداتهم بالمديح وعابوا ما فيهم من ضعف(زيادة، ١٩٨٧، ص١٦).

وكانت الرحلات الاسلامية قد ارتبطت منذ البداية بعلم تقويم البلدان او علم الجغرافيا، لذلك ان الرحالة عنو عناية خاصة بوصف المدن والبلدان وذكر طرقها وشعوبها واجوائها ونباتاتها وحاصلاتها كذلك عني الرحالة المسلمون بعلم تقويم البلدان للحاجة الى معرفة الطرق المؤدية الى مكة لقيام فريضة الحج(احمد، د.ت، ص٣٥).

واتبع الرحالة طريقة ممتعة في وصف عالمهم والعوالم المحيطة بهم، اذ اعتنوا بالحديث عن عادات الامم والشعوب وطباعها وما بديارها من اثار وعجائب وقعوا ما عندهم من اساطير وخرافات وبذلك اصبحت كتبهم الجغرافية كتباً ادبية، تعتمد على المشاهدة وحكاية ما روي الى الرحالة لتلك البلدان(ضيف، ١٩٨٧، ص١١-١٢).

وقد اتيح للمسلمين في العصور الوسطى ان يخوضوا ميدان الرحلات والاكتشافات والدراسات الجغرافية، وافادت أوربا مما كان عند المسلمين من علم بأجزاء العالم المعروفة في القرون الوسطى، وكان لازدهار الحضارة الاسلامية وسيادة المسلمين في البر والبحر وطبيعة الدين الاسلامي، كل ذلك كان من شأنه ان يشجع على الاسفار والرحلات(حسن، ٢٠١٢، ص٩).

لذلك كانت مساهمة الرحالة العرب والمسلمين عموماً على قدر عظيم من اهمية في مجال علم الرحلات الجغرافية، وكثيراً ما تردد عبارة على اقلام كثيرة من الباحثين الاجانب وهي قول لا يخلو من الغرض، بان العرب والمسلمين قاموا بسد الثغرة العلمية لبطليموس(مينورسكي، ١٩٨٥، ص٥).

ويتضح ذلك من خلال رحلات السندباد البحري التي وردت في كتاب الف ليلة وليلة، والتي ترجع الى عهد الخليفة هارون الرشيد(١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨م)، ان العرب والمسلمين قاموا في العصر العباسي برحلات بحرية تبدأ من بغداد وتسير في الخليج الفارسي حتى تصل الى بلاد

الصين، وليس مستبعد ان يكون الرحالة الاجانب الذين فتح لهم ميناء خانفو[١]، واسواقها سنة(٨٢هـ/٧٠١م) فقد اثبتت بعض الروايات التي وقعت في تلك المدينة وجود عرب ومسلمين هناك(احمد، د.ت، ص٣٥).

ولهذه الرحلات فوائد عديدة وغزيرة تبارى العلماء في العناية بها، واوجد الاسلام مناخاً مناسباً لازدهار الرحلات التي يقوم بها العلماء والرحالة المسلمون في قصاع المعمورة، ونتيجة لذلك برز مجموعة من الرحالة العرب والمسلمين اثروا في ادب الرحلات بالنفيس من الاخبار والعجائب ومشاهد البلدان، والناس على اختلاف اجناسهم واديانهم وشكل الرحالة المسلمون رحلات متميزة اعتبرت انموذجاً فريداً للانفتاح على الاخرين(الريامي، ٢٠١٣، ص١٣).

ثانياً: رحالة المشرق ودورهم في التدوين التاريخي

١-ابو القاسم عبيد الله بن احمد (ابن خرداذبه)(٢٨٠هـ/٨٩٣م):

هو أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن خرداذبه، ويعتقد انه كان مجوسيا وقد أسلم على يدي البرامكة[٢]، وقد تولى مهمة البريد والخبر في نواحي الجبل[٣]، في خلافة المعتمد على الله العباسي(٢٥٦-٢٧٩هـ/٨٦٩-٨٩٢م). (الصفدي، ٢٠٠٠، ج١٩، ص٢٢٩)

اما اصله فهو من بلاد فارس وكان لوالده فضل كبير في دراسته، وقيل ان والده كان مقرباً من السلطة العباسية حيث كان حاكماً على طبرستان في اوائل القرن الثالث الهجري (كراتشكوفسكي، ١٩٦٣، ص١٥٥)، ويبدو ان مكانة اسرته قد هيأت له وظيفة هامة وهي صاحب البريد بنواحي الجبل في بلاد فارس، ومن المحتمل ان هذا الوضع هو الذي دفع ابن خرداذبه بتأليف كتابه (المسالك والممالك) استجابة لطلب احد العباسيين الكبار(كراتشكوفسكي، ١٩٦٣، ص١٥٦)، وفي نفس الوقت ايضاً اسمحت له مكانته والمناصب التي اشتغل بها في البلاط العباسي بان يؤلف عدد من الكتب منها في مجال الرحلة او البلدان ومنها في مجالات اخرى واهمها:

- كتاب أدب السماع.
- كتاب جمهرة الأنساب للفرس.
- كتاب الطبيخ.
- كتاب اللهو والملاهي.
- كتاب الشراب.
- كتاب الندامى والجلساء(ابن النديم، ٢٠١٠، ص١٣٦).

ولكن ما يهمنا هو كتاب رحلته (المسالك والممالك) وقد اخذ هذا العنوان طابعاً شائعاً جداً من بعده لدى الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين في تأليف كتبهم(حميده، ١٩٩٥، ص١٠٦)، اما عن وفاته لم يثبت تاريخ وفاته ولكن رجحته بعض المراجع انه توفي سنة(٢٧٢هـ/٨٨٥م) (حميده، ١٩٩٥، ص١٠٦).

اما عن تدوين رحلته بدأ ابن خرداذبه بوصف الارض وتقسيماتها وقبله كل بلد ابتدأ من ارمينية واذريجان وبغداد وواسط ثم بدأ بذكر العراق والذي اطلق عليه السواد مع ذكر انهاره دجلة والفرات (ابن خرداذبه، ١٨٨٩، ص٤-٧)، ثم ينتقل الى الملوك والقابهم فيذكر ان ملك العراق يدعى كسرى وهو شاهنشاه وملك الروم يدعى قيصر وملك الترك والتبت والخزر يدعى خاكان وملك الصين يدعى بغبور وملك الهند يدعى البلهرا(ابن خرداذبه، ١٨٨٩، ص١٥-١٦)، ثم قام بذكر اقاليم المشرق وطرقها ابتدأ من اقليم خرسان والطريق المؤدي اليها من بغداد، بالإضافة الى ذلك اشار الى المسافات ما بين تلك الاقاليم بعدد الفراسخ، كذلك تطرق الى بلاد الهند والصين ومدنهما واحوال شعوبهما، فبدأ بذكر مدينة سرندين الهندية واعتبرها مدينة العبادة، كما تطرق الى انهار تلك المدن ومنابعها وحيواناتها(ابن خرداذبه، ١٨٨٩، ص١٨-٢٥).

ولم تقتصر رحلة بن خرداذبه على الوصف الجغرافي فحسب فقد وصف حياة وتقاليد نلك المدن، فأشار الى الملابس والاكل والشرب وصفاتهم(ابن خرداذبه، ١٨٨٩، ص٦٨)، ايضاً تميزت رحلته على الكافور والعنبر(كراتشكوفسكي، ١٩٦٣، ص١٥٧).

ويعتبر ابن خرداذبه اقدم الرحالة في العصر العباسي وقد خلف لنا كتاب المسالك والممالك الذي يشتمل على معلومات هامة في نظم الحكم وفي النظام المالي، بوجه خاص، وبعد هذا الكتاب من اقدم الكتب الجغرافية في اللغة العربية، وهو عبارة عن دليل يستعين به المسافرون في الاهتداء الى الطريق البحري الذي يبدأ من مصب نهر دجلة عند مدينة الابلة في البصرة ويصل الى الهند والصين، كما يشتمل هذا الكتاب على احصاءات وبيانات وافية عن خراج البلاد وطرقها والمسافات بينهما(احمد، د.ت، ص٥٥-٥٦).

وقد عنى كتاب ابن خرداذبه خاصة بالتعريف بالطرق الموصلة بين بغداد والمدن الاسلامية الاخرى وكذلك المسالك بين جميع هذه المدن وبذلك يقول: "فهمت الذي سالك من رسم ايضاح مسالك الارض وممالكها وصفتها وبعدها وتربها وعامرها وغامرها ورسوم طرقها وطقوسها على ممارسة المتقدمين منها"(احمد، د.ت، ص٥٧).

وخلاصة القول امتاز تدوين ابن خرداذبه بالتوسعيه في وصف البلدان التي زارها لا من حيث الطول والمسافات وانما ذكر حياة سكانها وتقاليدها وتجارتها.

٢-احمد بن عمر ابو علي (ابن رسته)(ت نحو ٣٠٠هـ/٩١٢م):

عالم جغرافي ورحالة من أهل أصفهان(ابن سعيد المغربي،١٩٧٠،ص٣٥)، لم تذكر المصادر والمراجع شيء عن حياته ووفاته او مؤلفاته بالاستثناء موسوعته الضخمة (الأعلاق النفيسة) والتي كانت رحلته جزء منها، تناول فيها الجغرافية الرياضية الطبيعية على حد سواء(الزركلي، ٢٠٠٢، ج١، ص١٨٥)(زيادة، ١٩٨٧، ص١٦٤)، بدء ابن رسته كتابه بالجغرافية الرياضية (الفلك) حيث تطرق الى اختلاف الليل والنهار وانتظام الكواكب ومسيرها، ثم تطرق الى جغرافية المدن والممالك الطبيعية وهو يصفها ويجمع اخبارها وهو في ذلك حاله حال غيره من الجغرافيين في تلك الفترة(ابن رسته، ١٩٨٨، ص٣-١٣)، وقد استهل ذكر رحلته بجغرافية المدن وابتدائها بمدينة مكة وتحديداً بالكعبة الشريفة حيث وصفها من الداخل والخارج وطولها وعرضها وعدد مرات بنائها(ابن رسته، ١٩٨٨، ص٢٤-٣٤)، وبعدها تطرق لعديد من البلدان اهمها العراق وبلاد فارس وبلاد الهند التي جعل لها قسماً مستقلاً عنوانه صفة بلاد الهند(ابن رسته، ١٩٨٨، ص١٣٢-١٤٢)، واحياناً يقتصر على سرد الاسماء وذكر القصص(كراتشكوفسكي، ١٩٦٣، ص١٦٥)، كذلك ذكر بانه يجمع بين الحقائق وبعض الاساطير، وكثيراً منهما مبني على المشاهدة(ابن رسته، ١٩٨٨، ص١٣٢-١٤٢)، وكان ذلك الوصف مبني على السماع والمشاهدة فامتاز بقول (رأيت) وتارة اخرى يقول اخبرني(ابن رسته، ١٩٨٨، ص١٣٢-١٤٢).

٣-احمد بن محمد بن اسحاق (الهمداني)(ت٣٤٠هـ/٩٥١م):

احمد بن محمد بن اسحاق بن ابراهيم، ويلقب بأبو بكر ويعرف بابن الفقيه والهمداني،(ابن النديم، ٢٠١٠، ص٢٤٧)؛ (الحموي،١٩٩٣،ج٤، ص١٩٩)، وهو من اسرة اشتهرت بعلم الحديث والادب من اهل فارس من مدينة همدان (الزركلي، ٢٠٠٢، ج١، ص٢٠٨)؛ (حميده، ١٩٩٥، ص١٣١)، ويذكر ابن النديم لا توجد معلومات وفيرة عن حياته باستثناء ما ذكر عنه انه من اهل الادب (ابن النديم، ٢٠١٠، ص٢٤٧)، اما عن تاريخ وفاته فهي سنة (٣٤٠هـ/٩٥١م) (الحموي، ١٩٩٣، ج٤، ص٢٠٠).

دون الهمداني في كتابه البلدان رحلاته فوصف فيه الارض والبحار وبلاد العرب واقاصي الشرق منها الهند والصين(احمد، د.ت، ص٨٥)، وقد سلك ابن الفقيه في تعريف الاقاليم المنهج الاقليمي الوصفي اي المنهج الجغرافي الصرف الذي يعتمد الخريطة ويعدها جزءاً لا ينفصل عن

النص(خصباك، ١٩٩٠، ص١٦٢)، وقد اتبع نهج التوسعية في وصف المدن لا من حيث الموقع والطول والعرض وانما ذكر حياتها ودوابها وتقاليدها والحياة الاجتماعية (ابن الفقيه، ١٨٨٣، ص١٦٢)، واستخدم في منهجه معاني ومدلولات المدن اعتماده بذلك على الروايات التي تنسب بعضها الى أنبياء مثل مدينة بكة فيقول: سميت بكه وهي موضع البيت ومكة موضع القرية وحسب ما قال ابراهيم عليه السلام (ابن الفقيه، ١٨٨٣، ص١٧، ١٢٨، ١٦٢).

ولم يخلُ منهجه من ذكر العجائب والاساطير، فيذكر عن بعض العجائب البحار ومنها الاسماك في تلك البحار فيقول: "ان في بحر فارس والروم اسماك على هيئة قرود ومن جلوده تصنع الدرق كما ان هناك اسماك ترضع صغارها، واسماك تدعى الدخس تنجي الغريق من الغرق" (ابن الفقيه، ١٨٨٣، ص٩)

٤-ناصر خسرو(ت٤٨١هـ/١٠٨٨م):

هو أبو معين الدين ناصر خسرو الحكيم القبادياني المروزي، رحالة وشاعر وفيلسوف فارسي، ولد في قبادیان بالقرب من بلخ سنة(٣٩٤هـ/١٠٠٣م)، كان ناصر خسرو دبلوماسياً محنكاً لذا صار قريب الصلة من ولاة الامر فعمل في بلاط محمود الغزنوي وابنه مسعود ونال اعجاب واحترام وتقدير السلطانين الغزنويين اللذين عاصرهما لذا بقي تأثيره على العلماء المعاصرين له كبير جداً، فجمع كثير من المعارف الخاصة بعلمي الجغرافية والتاريخ.

تقلد ناصر خسرو مناصب قيادية مرموقة في ديوان جغري بيك السلجوقي حاكم خراسان ولكنه لم يستمر بهذه الوظائف الحكومية بل تركها وتفرغ للبحث العلمي والرحلات العلمية(الدفاع، د.ت، ص١٤٣-١٤٤).

قرر خسرو ان يخلص عمله لوجه الله فرحل سنة(٤٣٧هـ/١٠٤٥م) الى مكة المكرمة وادى مناسك الحج فأقلع عما كان عليه وسار في الطريق السوي، وخلال رحلته الى الحج زار بلاد كثيرة فوصفها في كتابه (السفر نامه) الذي يعتبر من اهم المصادر التي يعتمد عليها الباحثون لوصفه الدقيق وعنايته الشديدة في تقصي اخبار البلدان التي زارها، توفي سنة(٤٨١هـ/ ١٠٨٨م) بالمنفى في جبال خراسان في غار يمكان الذي نشر مذهبه الاسماعيلي(٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م) (الامين، ١٩٨٣، ج١٠، ص٢٠٢وما بعدها)، اما مؤلفاته فهي:

- سفر نامه.
- ديوان الشعر.
- خوان اخوان (الفلسفة).

- كتاب السعادة.
- كتاب الضياء.
- جامع الحكمتين(الامين، ١٩٨٣، ج١٠، ص٢٠٢وما بعدها).

فيما يتعلق بتدوين رحلته فقد رحل اول مرة الى بلاد مصر وامتدت هذه الرحلة ثمانية اشهر، ثم توجه الى الحجاز لأداء فريضة الحج وعند الانتهاء توجه الى البحرين ثم البصرة وقد لنا وصفاً مفصلاً لتلك المدينة وخاصة النظام الاجتماعي والسياسي ثم حاول العبور الى بلاده عن طريق الاهواز لكنه كان مطلوباً للسلاجقة بسبب انتمائه للدولة الفاطمية، لكنه لم يستطع ذلك وقيل انه بقي متخفي في الجبال الا ان توفي سنة(٤٨١هـ/١٠٨٨م) (حميده، ١٩٩٥، ص٣٣١).

وخلف هذا الرحالة وصفاً دقيقاً بدفع للظن بانه كان يسجل مشاهداته اولاً فأولاً، وكان دقيق الملاحظة شديد العناية بتقصي الاخبار مثلما يعني بالاتصال بالشعوب التي يمر بها(الفيل،١٩٧٩، ص١٦).

ويتفهم مظاهر الحضارة التي يشاهدها فجاءت رحلته (سفر نامة) غنية بالصور خاصة بالمعلومات عن البلاد التي زارها وتلقى نوراً على الكثير من شؤونها الاجتماعية والاقتصادية قبيل الغزو الصليبي وقد ترجمت رحلته (سفر نامة) الى الفرنسية واصبحت مصدراً اساسياً في دراسته الحضارة الاسلامية في الشرق خلال القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)(حميده، ١٩٩٥، ص٣٣١).

ومن اهم ما ذكره في تلك الرحلة عن المدن، فيذكر عن مدينة مكة بانها تقع بين جبال عالية واقرب جبل عليها هو جبل ابي قبيس وهو مستدير كالقبة شرقي مكة وقد نصب على قمته برج من الحجر يقال انه ضريح النبي ابراهيم عليه السلام(ناصر خسرو، ١٩٩٣، ص١٣٨)

كذلك ذكر بصورة مفصلة مدينة البصرة فقيل عنها انها ذات سور عظيم يحيط بها من كل الاتجاهات ما عدا الجزء المطل على النهر وهذا النهر هو شط العرب ويلتقي دجلة والفرات عند حدود مدينة البصرة فيكونان الشط ويتفرع منه قناتين ومن هاتين القناتين شقت ترع كثيرة وغرست اشجار النخيل والحدائق على شواطئها، وكانت معظم الصرة خراباً، والجهات العامرة متباعدة جداً وبها خلق كثير ودخل سلطانها كبير، وسوقها بنصب في ثلاثة جهات(خسرو، ١٩٩٣، ص١٦٣-١٦٤).

٥-ابو الحسن علي بن ابي بكر (الهروي) (٦١١هـ/١٢١٤م):

أبو الحسن علي بن أبي بكر بن علي الهروي، رحالة، مؤرخ أصله من مدينة هراة في بلاد السند، طاف بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق كان يكتب عل الحيطان، ولا توجد مدينة دخلها الا وفيها خطه حتى ان رؤساء الغزاة البحرية أنهم دخلوا في البحر الملح إلى موضع وجدوا في بره حائطا وعليه خطه(الزركلي، ٢٠٠٢، ج١، ص٢٧١).

ويذكر ابن خلكان انه لم يترك براً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الاماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها الا ورأها(الزركلي، ٢٠٠٢، ج١، ص٥٧٣)، وفي سنة(٥٦٩هـ/١١٧٣م) زار القدس والخليل وفي العام نفسه زار الاسكندرية وتجول في الديار المصرية حتى مدينة اسوان واستمر بتواجده في مصر حتى عام(٥٧٢هـ/ ١١٧٦م) شاهد خلالها الاثار والمزارات وكان عمل الهروي شاقاً وعسيرا في كتاباته من هذه المرحلة المهمة في تاريخ مصر لذلك سجل الهروي في تلك الرحلة وصف وصفات البلدان في كتابه اسماه الإشارات إلى معرفة الزيارات، اما عن تاريخ وفاته فقد توفي سنة(٦١١هـ/١٢١٤م) (احمد، د.ت، ص٩٣).

بدء الهروي بتدوين رحلته من بلاد الشام وقد وصف مدن ومناطق لم تكن معروفة لدى الكثير من الجغرافيين والرحالة وعلى سبيل المثال وصفه لمدينة براق وحمام طبرية وغيرها، ولم يقتصر الهروي على وصف البلدان ومنطقها وحسب وانما اعطى لكم مدينة خاصيتها(الهروي، ٢٠٠٢، ص١٧)، ثم ينتقل الهروي في وصفه لتلك الرحلة الى بلاد مصر وقد اعطى صورة واضحة على مدينة الصعيد ومنها عين شمس ومغائر الصعيد وغيرها، وما يميز رحلة الهروي بانها وصفت الكثير من الاساطير والشائعات المتداولة في تلك البلدان، كما اعتبرت من الرحلات المهمة للرحالة المسلمين(الهروي، ٢٠٠٢، ص٤٣-٤٦).

وقد استهل الهروي اسفاره من حلب فكانت بلاد الشام اولى الاقطار التي زارها ووصفها واقام بمدينة القدس عامين (٥٦٩-٥٧٠هـ/١١٧٣-١١٧٤م) التي كانت بايدي الصليبين، وزار ارجاء الدول البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية في زمن الامبراطور عمانوئيل الاول(حميده، ١٩٩٥، ص٤٨٢).

اما عن الحبشة فقد وصف الاماكن المشهورة فيها نقلاً عن الزوار الثقاه، والجانب الفريد عن مؤلف الهروي (الإشارات إلى معرفة الزيارات) هو اشبه بمرشد للزوار الذين يزورون البلدان التي ذكرها الهروي في كتابه، بالإضافة الى كتب اخرى من تأليف ومنها كتاب (الاثار والعجائب والاصنام)، وكتاب في السياسة اسمه (التذكرة الهروية في الحيل الحربية) يتضمن ما يحتاجه اليه

الملوك من سياسة الرعية وما يعتمدون عليه في الحروب وما يدخرونه لدفع المشاكل، وواجبات السلطان والوزراء والحجاب والولاة والقضاة وارباب الديوان والجلساء والرسل(حميده، ١٩٩٥، ص٤٨٣).

ويذكر الهروي في مقدمة كتابه (الإشارات إلى معرفة الزيارات) "وها أنا أبتدئ بذكر الزيارات من مدينة حلب وأعمالها والبلاد التي تليها، ثم أذكر الشام بأسرها، والساحل بأسره، وبلاد الفرنج وفلسطين والأرض المقدسة وجميع زيارات البيت المقدس ومدينة الخليل عليه السلام وديار مصر بأسرها والصعيدين، والبلاد البحرية، والمغرب، وجزائر البحر، وبلاد الروم، وجزيرة ابن عمر، وديار بكر، والعراق بأسرها، وأطراف الهند، والحرمين الشريفين مكة والمدينة- حرسهما الله تعالى- واليمن وبلاد العجم"(الهروي، ٢٠٠٢، ص١٤).

واعتبرت اسفار الهروي انموذجاً حياً لتلك الرحلات التي سيطرق مع مرور الزمن على اذهان اعداد ومجتمعات كثيرة، واعتبر من الاساتذة الذين درسوا الكثير من المؤرخين ومنهم ياقوت الحموي(ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) (حميده، ١٩٩٥، ص٤٨٣).

وقد جاء كتابه (الإشارات إلى معرفة الزيارات) في ذكر مئات من الاماكن الدينية وهي المقصودة بالذات في التأليف، لكن الهروي يضيف بين حين واخر فرائد تاريخية وملاحظات عامة كوصفه لمدينة دمشق واشاراته لرأس الامام الحسين عليه السلام ونقله من عسقلان وتحدث عن مقياس النيل(زيادة، ١٩٨٧، ص١٦٥)، كذلك لم يقتصر على الاماكن الدينية والمدن فقد قام بوصف النبات والزهور لبلاد مصر (زيادة، ١٩٨٧، ص١٦٤).

وذكر الهروي تأليف سبب تأليفه الكتاب "أما بعد، فإنه سألني بعض الإخوان الصالحين والخلان الناصحين أن أذكر له ما زرته من الزيارات، وما شهدته من العجائب والأبنية والعمارات، وما رأيته من الأصنام، والآثار والطلسمات في الربع المسكون والقطر المعمور، ووقع الامتناع إلى أن حصل لي الاجتماع برسول وفد من الديوان العزيز- شرّفه الله وعظّمه- وتبرّكنا بزيارته واستسعدنا برؤيته، إذ كان قدومه من دار السلام، وقبة الإسلام،... فوقع ابتداء ذكر الزيارات من مدينة حلب"(الهروي، ٢٠٠٢، ص١٣).

وكانت رحلته الرحلات الطويلة فقد طاف العالم الاسلامي وزار القسطنطينية وصقلية وغيرها من الجزائر في بحر الروم وعني بتدوين تجواله، ومن جهة خاصة اعطى عناية خاصة في المشاهدة على الأبنية والعمارات، والأصنام، والآثار والف بذلك كتابه المعروف الإشارات إلى معرفة الزيارات، الى ان توفي سنة(٦١١هـ/ ١٢١٤م) (الريامي، ٢٠١٣، ص٦٦).

٦-زكريا بن محمد بن محمود (القزويني) (ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م):

كان احد القضاة المعروفين في العصر العباسي وتحديدا في خلافة المستنصر بالله العباسي(٦٣٢-٦٤٠هـ/١٢٣٤-١٢٤٢م) الذي تولى قضاء مدينة واسط وقضاء مدينة الحلة(الصفدي، ٢٠٠٠، ج١٩، ص١٣٨-١٣٩)، كما كان احد الرحالة المعروفين في القرن السابع الهجري ولقبه القزويني يدل على انه من اقليم بحر قزوين شمالي ايران(ضيف، ١٩٨٧، ص٢١)، اما عن وفاته فيذكر الصفدي انه توفي في السابع من شهر محرم سنة(٦٨٢هـ/١٢٨٣م) (الصفدي، ٢٠٠٠، ج١٩، ص١٣٨-١٣٩).

وللقزويني عدة مؤلفات واهما ما يخص رحلاته هو كتاب آثار البلاد وأخبار العباد، والكتاب الثاني عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات (الفندي، ١٩٨٢، ص٥٧).

وفيما يخص كتابه الاول وهو آثار البلاد وأخبار العباد اعطى في تدوينه اهمية قصوى في ذكر احوال البلاد والسكان دون اهتمام بالطرق والمسالك، مضيفاً عليه كل طرفة نادرة وعجيبة وخارقة، وقد قسم هذا الكتاب الى سبعة اقاليم تكلم عن كل اقليم وما يحتويه من بلدان، مرتباً لها حروف المعجم، وبجانب التدوين الجغرافي نجده يقص عن اخبار البلاد الاسلامية كثيراً من الحكايات عن الزهاد والصالحين كما يتعرض لكثير من اخبار التاريخ والملوك السابقين ويجمع كتابه خوارق النساك والمتصوفة بجانب خوارق البنيان والاثار(الريامي، ٢٠١٣، ص٨٣).

اما عن كتابه الثاني عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات فقد قسم فيه القزويني اثناء التدوين الى قسمين يعالجان الكلام عن العالمين العلوي والسفلي، فالقسم الاول وهو العلوي يتناول الكلام عن الاجرام السماوية (الشمس والقمر والنجوم)، اما القسم الثاني وهو السفلي فقد خصصه الى الارض وظواهرها وقسم المعمورة الى سبعة اقاليم مع اسباب حدوث الكوارث الطبيعية مثل الزلازل والفيضانات كذلك تكوين الجبال ونشأة الانهار والمنابع والعيون(كراتشكوفسكي، ١٩٦٣، ص٣٦١).

وقد تميز تدوين القزويني بعدد من الروايات العجيبة مما جعل منها اقرب الى الخرافة ولكنها مع ذلك لها طرافها اذ اراد بها الى القصص، اشبه بكتاب الف ليلة وليلة وما كان يحتويه من عالمي الجن والانس(ضيف، ١٩٨٧، ص٢٣).

ومن العجائب التي ذكرها القزويني بقوله: "في بحر الصين فيها نساء لا رجل معهن أصلاً، وإنهن يلقحن من الريح ويلدن النساء مثلهن، وقيل: إنهن يلقحن من ثمرة شجرة عندهن يأكلن منها فيلقحن ويلدن نساء"(القزويني، ١٩٦٠، ص٣٣).

كذلك ذكر عن جزيرة تدعى برطابيل وهي من مدن بلاد السودان حيث قال عنها: "ان سكانها قوم وجوههم كالمجان المطرقة، وشعورهم كأذناب البراذين، وبها الكركدن، وبها جبال يسمع منها بالليل صوت الطبل والدف والصياح المزعجة، والبحريون يقولون: إن الدجال فيها ومنها يخرج"(القزويني، ١٩٦٠، ص٨١).

كذلك كان تدوين القزويني يتضمن الممالك الطبيعية وهي المعدنية والنباتية والحيوانية كذلك حضي بذكر المملكة الانسانية وخصائصه الاخلاقية وتشريحه ومميزات الشعوب المختلفة، وكما يورد لهذا تفاصيل تاريخية وافية كما انه لا يهمل التفاصيل ايضاً حين التدوين عن سير مشاهير الرجال في الاماكن المختلفة (كراتشكوفسكي، ١٩٦٣، ص٣٦٤)، وهو لا يقف في تدوينه بذكر البلدان العربية والاسلامية فقد شمل وصفه البلدان الاوربية وافريقيا واسيا وبلادها البعيدة مثل الهند والصين(ضيف، ١٩٨٧، ص٢١).

الخاتمة

لعبت رحلات المشرق الاسلامي دوراً بارزاً في التدوين التاريخي والجغرافي خلال العصور الاسلامية، وتعد احدى المصادر المهمة التي اعتمد عليها في دراسة التاريخ والجغرافية الاسلامية وغير الاسلامية، لذلك اقتصرت دراسة البحث عن اهم الرحلات المشرقية والذي استنتج عدة امور وهي:

١- انها لم تقتصر على جانب واحد اثناء التدوين والوصف وانما شملت تقريباً كل الجوانب منها الجانب الجغرافي والجانب الاجتماعي والجانب السياسي والجانب الاقتصادي.

٢- جسدت بعض الحقائق التاريخية التي عاشها وشاهدها الرحالة في تلك الحقبة، فهي دونت بشاهد عيان او عن طريق النقل لبعض الثقاة الذين التقى بهم الرحالة في تلك البلدان.

٣- اعتبرت من الاثار الادبية التي تناولت انطباعات الرحالة واحاسيسه ومشاعره وافكاره حول رحلته وفي مختلف الجوانب.

٤- اعتبرت من المصادر الاولية التي اعتمدتها الدراسات الاولية والعليا في كتابة البحوث والرسائل والاطاريح.

وبهذه الامور اندرجت رحلات المشرق الاسلامي ضمن مصادر التاريخ الاسلامي واصبحت واحدة من اهم مصنفات كتب التاريخ.

المصادر والمراجع

اولاً: المصادر الاولية

١- الحموي، شهاب الدين بن عبد الله ياقوت(ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، (١٩٩٣)، **معجم الادباء ارشاد الاريب الى معرفة الاديب**، تح: احسان عباس، ط١، دار الغرب الاسلامي، بيروت.

٢- بابن خرداذبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله(٢٨٠هـ/٨٩٣م)، (١٨٨٩)، **المسالك والممالك**، دار صادر أفست ليدن، بيروت.

٣- ناصر خسرو، أبو معين الدين الحكيم القبادياني(ت٤٨١هـ/١٠٨٨م)، (١٩٩٣)، **سفر نامه**، تر: يحيى الخشاب، ط٣، الهيئة المصرية العامة، القاهرة

٤- ابن رسته، ابو علي احمد بن عمر(ت نحو٣٠٠هـ/٩١٢م)، (١٩٨٨)، **الاعلاق النفيسة**، دار احياء التراث العربي، بيروت.

٥- السيرافي، أبو زيد الحسن(٣٣٠هـ/٩٤١م)، (١٩٦١)، **رحلة السيرافي الى الهند والصين**، مطبعة دار الحديث، بغداد.

٦- الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، (٢٠٠٠)، **الوافي بالوفيات**، تح: احمد الارناؤوط، ط١، دار احياء التراث العربي، بيروت.

٧- ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا(ت٧٠٩هـ/١٣٠٩)، (١٩٩٧)، **الفخري بالآداب السلطانية والدول الاسلامية**، تح: عبد القادر محمد مايو، ط١، دار القلم العربي، بيروت.

٨- ابن الفقيه، ابو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمذاني (ت٣٤٠هـ/ ٩٥١م)، (١٨٨٣)، **البلدان**، مطبعة بريل، ليدن.

٩- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود(ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م)، (١٩٦٠)، **اثار البلاد واخبار العباد**، ط١، دار صادر، بيروت.

١٠- ابن النديم، ابي الفرج محمد بن ابي يعقوب(ت٣٨٠هـ/٩٩٠م)، (٢٠١٠)، **الفهرست**، تح: يوسف علي الطويل، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١- الهروي، أبو الحسن علي بن أبي بكر بن علي(٦١١هـ/١٢١٤م)، (٢٠٠٢)، **الإشارات إلى معرفة الزيارات**، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، الرياض.

١٢- ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد(ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، (٢٠٠٨)، **خريدة العجائب وفريدة الغرائب**، تح: أنور محمود زناتي، ط١، مكتبة الثقافة الإسلامية ، القاهرة.

ثانياً: المراجع الثانوية

١٣- احمد، احمد رمضان، (د.ت)، **الرحلة والرحالة المسلمون**، دار البيان العربي للطباعة والنشر، جدة.

١٤- الامين، محسن، (١٩٨٣)، **اعيان الشيعة**، تح: حسن الامين، دار التعارف، بيروت.
١٥- حسن، زكي محمد، (٢٠١٢)، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.
١٦- حميده، عبد الرحمن، (١٩٩٥)، **اعلام الجغرافيين العرب**، ط١، دار الفكر، دمشق.
١٧- خصباك، شاكر، (١٩٩٠)، **رواد الجغرافية العربية**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
١٨- الدفاع، علي بن عبد الله، (د.ت)، **رواد العلم الجغرافي في الحضارة العربية والاسلامية**، مكتبة التوبة، الرياض.
١٩- الريامي، كمال بن محمد، (٢٠١٣)، **مشاهير الرحالة العرب**، ط١، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة.
٢٠- الزركلي، خير الدين، (٢٠٠٢)، **الاعلام**، ط١٥، دار العلم للملايين،. بيروت
٢١- زيادة، نقولا، (١٩٨٧)، **الجغرافية والرحلات عند العرب**، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
٢٢- ضيف، شوقي، (١٩٨٧)، **الرحلات**، ط٤، دار المعارف، القاهرة.
٢٣- الفندي، جمال، (١٩٨٢)، **الجغرافيا عند المسلمين**، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
٢٤- الفيل، محمد رشيد، (١٩٧٩)، **اثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب**، ط١، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت.
٢٥- كراتشكوفسكي، اغناطيوس يوليا نوفتش، (١٩٦٣)، **تاريخ الادب الجغرافي العربي**، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
٢٦- مينورسكي، م. ف، (١٩٨٥)، **الجغرافيون والرحالة المسلمون**، تر: عبد الرحمن حميده، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت.

الهوامش:

(١) ميناء خانفو، احدى مدن بلاد الصين من ناحية الشرق وأولى مدن الصين البحرية احتوت على ميناء يدعى ميناء خانفو عرف عند العرب والمسلمين، ينظر: السيرافي، ١٩٦١، ص٣٤.

(٢) البرامكة: هي احدى الاسر الفارسية التي عرفت ببلاد فارس قبل الاسلام، وينسبون الى جدهم الاكبر برمك وقد حظي الكثير منهم بعناية ومنزلة الخلفاء العباسيين، ينظر: ابن الطقطقي، ١٩٩٧، ص١٩٧.

(٣) ارض الجبل: وهي ارض واسعة واقليم عظيم ويسمى اقليم فرسان وعراق العجم ويشمل خمسمائة مدينة، ينظر: ابن الوردي، ٢٠٠٨، ص١٢١.